بمناسبة ٢٤ حزيران

عادة التنوير

في عيد القديس يوحنا المعمدان

نبذة لحضرة المؤرخ يوسف العشي المرسل البطريركي

لكل امة عادات ارثية تختلف مصادرها باختلاف آدابها وعقائدها. وتتباين الآراء في اصلها على قدر بُعد عهدها ، الّا ان يزيل هذا الاشكال تاريخها او يروي عنها تقليدها كعادة التنوير في عيد الصليب الواقع في ١٤ ايلول . فليس من يجهل اصلها ، وما كان من امر استرجاع الصليب من العجم . اما عادة التنوير في عيد القديس يوحنا المعمدان فلكلٍّ فيها آراء لا تتعدّى حدّ التخمين .

قيل ان احد العملة على دواليب الحرير لم ينقطع عن الشغل في عيد القديس المذكور ، فاتفق ان احترق دولابه ، فدُعي اذ ذاك العيد بحرّاق الدواليب . واخذ الناس في بعض الجهات يوقدون النار في هذا العيد تذكاراً لتلك الحادثة .

وقيل ايضاً : ان عادة التنوير في عيد القديس يوحنا وثنية الاصل ، وهو الاقرب الى الصواب . ولمّا كان الكثيرون يودّون الوقوف على حقيقة التقليد بما يخصّ هذه العادة رأيت ، بمناسبة العيد الذي تبزغ شمسه علينا في ٢٤ الجاري ان اتخذها موضوع الكلام لعلّ بها ما يُفكه خواطر القرّاء الكرام .

ان عادة ايقاد النار هي قديمة جداً لا يتحمل بنا عهدها بالتدقيق . وكل ما نعلمه بشأنها انها وثنية الاصل ، اتخذها سدنة الهياكل من اسباب اللهو والانشراح في الاحتفالات باعيادهم . وصدف ان وقع عيد ميلاد القديس يوحنا في احد فصول السنة الذي تدخل فيه الشمس برج الاسد ، وكان هذا اليوم مهرجاناً لدى الامة الوثنية تحتفل به بالطواف بالمشاعل وايقاد النار ، فكان للعادة تأثيرها عند كل شعب وامة .

ولما كان يتعذّر على الكنيسة ابطال هذه العادة العامة ، استحسنت ان تجعل عليها مسحة مسيحية بأن تُحيلها لغاية الاحتفال بعيد ميلاد القديس يوحنا استناداً

الى نصوص الكتاب الكريم « ليس في مواليد النساء نبيّ اعظم من يوحنا » ، وفي محل آخر: « ويفرح كثيرون بمولده لانه يكون عظيماً ، ويمتلئ من الروح القدس وهو في بطن امه . »

ولئن تعذّر علينا معرفة ما كان من شأنها في أول عهدها في العهد المسيحي ، فلا يتعذر علينا معرفة تقاليد القرون الاولى وما يليها . ففي القرن الخامس ، ذكرها تيودوره بحواشيه في كتابه عن ملوك فرنسة مجلد ٤ : ١٣ : ٣ والقديس اغوسطينوس يذكر عادة التنوير في بعض الاعياد كعادة عمومية لا يدرك عهدها .

وفي مفكرات غليوم ديران : ان التنوير في عيد القديس يوحنا كان عمومياً في وقته ، فكان الناس يطوفون في المدينة وفي ايديهم المشاعل رمزاً الى القديس يوحنا الذي كان نوراً يضيء في الظلمة وسراجاً موقداً وبشيراً بالمخلص . وفي ايامه كانوا يحرقون عظام الحيوانات في ايقادهم النار ذكراً لعظام القديس يوحنا التي احرقها اليهود في سبسطية[1] .

وفي باريس عينها كان لكلّ رعيّة عادةٌ في ايقاد النار المذكورة واشهرها . العادة التي كان يتولّى إيقادها الولاة في ساحة الكراف بحضرة الملك ووجوه واعيان المملكة ، واشهر تنوير يذكره لنا تاريخ عاتيك الاجيال هو تنوير سنة ١٤٣١ الذي احتفل به لويس الحادي عشر .

واما تنوير سنة ١٥٧٢ الذي تولى الاحتفال بـه شارل التاسع فكان في غاية الابهة والعظمة ، حضره القوّاد والاعيان وكل هيئات الحكومة . فنصب في وسط الساحة عمودٌ طويل يعارضه عوارض خشبية معلقٌ عليها ٥٠٠ حزمة من الاغصان و ٢٠٠ حزمة من الحطب وجميعها تتركز على هشيم سريع الالتهاب ، وعلى قمة العامود برميل يحتوي على مولد قابلة الاحتراق ، ودولاب تتعلق باطرافه اسهم نارية . ويعلو الجميع كيس كبير فيه ٢٤ هرّاً ، وثعلب واحد ، وكان العامة يدعون هذا المشهد مشهد رقص الحيوانات .

وقد ذكر في ميزانية حكومة باريس انه قد أعطي احد الجباة مئة قطعة

---

١) احدى قرى فلسطين المشهورة بكنيستها الصليبية التي حوّلها المسلمون الى جامع . وفيها مدافن القديس يوحنا ، واليشع ، وعوبديا النبيين .

عملة باريسية ، لتقديمه بمدة ثلاث سنوات كل ما يلزم لحفلة تنوير عيد القديس يوحنا : ١٥٣٩ من الهرة ، وثعلب واحد ، وكيس حسب العادة.

وفي سنة ١٥٩٣ حضر حفلة تنوير العيد الملك هنري الرابع مع اهل بلاطه واعيان مملكته . وممن يذكرهم التاريخ انهم حضروا حفلة ايقاد النار في عيد القديس يوحنا لويس الثالث عشر والملكة الشابة حنة دوتريش ، ولويس الرابع عشر الذي تناول طعام الافطار في المحل عينه حسب العادة.

ولم تكن باريس لتنفرد بتضخية بعض الحيوانات كما تقدم القول ، بل تعدّت هذه العادة الى غيرها من مدائن فرنسة . اما كان المحتفلون بايقاد النار المشار اليها يضعون الهرة والثعالب في اقفاص كبيرة لمشاهدتها بمجال احتراقها ، لا باكياس كما كان يصنع الباريسيون.

وفي بعض البلدان كان الشعب يحتفل بنوع آخر . فكان حاكم المدينة يركز خشبة دقيقة مرتفعة تجاه المقبرة العمومية ، ويعلق برأسها ضمة من سوق النبات المعروف بالثوم ، وتجمع حواليها حزم الحشيم ، ثم يأتي خوري الرعية فيباركها اولًا ثم يلقي فيها النار ، واخيرًا تجمع سوق الثوم وتوزع على الحضور فيتخذونها بركة ويعلقونها في بيوتهم اعتقاد انها تقيهم من الوباء وضربات الصواعق.

اما في رومة فيجتمع الشعب عشية ليلة العيد حوالي كنيسة القديس يوحنا لاتران الكبرى ، وبايديهم اصول البصل الزاهرة ، فيحيون تلك الليلة بالاغاني واسباب الطرب والالعاب.

اما في لبنان فعادة ايقاد النار عشية ليلة العيد محلية ، اي في بعض الاماكن ، اما عادة الخروج من المساكن للنزهة والانشراح فعادة قديمة وعمومية.

٢

من العادات ما هي حسنة ومنها ما هي سيئة . فعادة ايقاد النار احتفالًا بالعيد ليس فيها ما يشمّ منه رائحة الاعتقادات الباطلة او ما يخلّ بالآداب . وقد كان خوري الرعية عينه يحتفل في بعض الاماكن بايقاد النار المذكورة ومباركتها حسب الصلوة المعدة لهذه الغاية في كتاب الطقس الروماني على التنسيق الآتي :

اولًا : يخرج الكهان والمرتلون من الكنيسة وهم يلحنون النشيد

المعروف « Veni Creator »: «هلمَّ ايها الروح الخالق» ويذهبون توًّا الى حيث اعدوا كومة الحطب ، وبعد نهاية النشيد المذكور يتلو الكاهن بعض نوافذ فيجيبه عليها المرتلون بامثالها ، ثم يتقدم ليشعل النار ، ويبدأ المرتلون باناشيد اكرامية لصاحب العيد . وبعد نهاية الترتيل يتلو الصلاة التابعة :

« ايها الاله النور الحقيقي الذي ينير كلَّ انسان آتٍ الى العالم ، بارك هذه النار المعدّة لاكرام صفيك القديس يوحنا الخ »[1] وبعد نهاية الصلاة يرش من الماء المبارك على النار ويرجع والمرتلين الى الكنيسة وهم يلحنون ترنيمة الشكر« Te Deum »: «اياك اللهم نمدح»وما بقي مما لم تحرقه النار يؤخذ ويحفظ في البيوت كما نحفظ نحن اغصان الزيتون وسعف النخل بعد تبريكها في احد الشعانين في بيوتنا تيمناً . اما العادات السيئة التي يشتم منها رائحة الاعتقادات الباطلة والخرافات الوثنية فهي الرقص والقفز والدوران حول النار ، كما يفعل اللبنانيون ايضاً في بعض القرى بعد ايقادهم النار عشية عيد الصليب اعتقاداً منهم بان هذه التظاهرات والحركات تطيل ايام حياتهم .

على ان بعض الجهلة لا يقفون عند هـذا الحدّ بل يوغلون في ضلالهم ، ويعتقدون كل الاعتقاد ان في النار المرقدة في ليلة عيد القديس يوحنا قوة غريبة تأتي بالخوارق والمعجزات . ومن عداد معجزاتها لديهم انها تريهم شعر خطيباتهم . وهم لذلك يدورون حولها ثلاثاً ويتناولون جذىً منها وبعد ان يطفئوها ، يأخذونها لبيوتهم ويضعونها تحت وسائدهم عند رقادهم ؛ وفي اعتقادهم انهم سيرون شعر من ستكون رفيقة حياتهم ملصوقاً على الجذوة المذكورة عند نهوضهم ، الى غير ذلك من الخرافات والاعتقادات البـاطلة التي هي من بقايا العادات الوثنية وتقاليد الامم العريقة بالهمجية[2]

وخـلاصة القول ان الغربيين ، وان كانوا سبقونا في مضمار التمدن شوطاً بعيداً واخذنا نحن نجاريهم في عاداتهم واصطلاحاتهم ، لكنهم قد سبقونا ايضاً في كثير من عاداتهم المستهجنة التي يستقبحها عقلاؤهم اليوم .

(١ Barbier de Montauls, *Œuvres, A. I*. p. 6?.

(٢ Guérin, *Les petits Bollandistes A. VII*, p.317